من أحاديث الإذاعة :

شهيد العيد ... !

للأستاذ علي الطنطاوي

كلفتني محطة الشرق الأدنى أن أكتب قصة لتذاع عنى أولّ يوم من عيد الأضحى ، وهذا هو العيد قد حلّ حلّت عليكم فيه البركات والخيرات ، ولكن القصة لم تكتب ... إن لها قصة يا سادة ، فاسمعوا قصتها ...

***

أنا رجل من طبعه التأجيل والتسويف ، أؤخر الأمر ما دام فى الأجل فسحة ، وأرجئه إلى آخر لحظة منه ، ثم أقوم كالمجنون أنطّ(١) قافزاً مثل الأرنب الذى زعم (أخونا ...) لافونتين أنه نام حتى سبقته السلحفاة ، وإن لم أكن قد رأيت فى عمرى سلحفاة تسبق أرنباً ...

فلما ورد علىّ كتاب المحطة نظرت فإذا بينى وبين موعد الأذاعة أمد طويل فاطمأننت ونمت ، حتى إذا كانت ليلة العيد ، ولم يبق أمامى إلا ساعات معدودة أكتب فيها القصة وألحق بها البريد الجوى ، أخذت قلمى وصحيفتى لأكتب فسدّت علىّ أبواب القول ومنافذه وكواه ... وعدت مرتجاً علىّ محبوساً لسانى كأنى ما مارست الكتابة قط ، وكذلك نفس الأديب يا سادة تتفتح تفتّح الينبوع الدفاق ، ثم تشحّ شحّ الصخرة الصماء ما تبض بقطرة ماء ، ولكن الناس لا يصدقون ذلك : إنهم يحسبون الكاتب يخرج المقال من نفسه كما يخرج التاجر البضاعة من دكانه ، لا يدرون أن هذا الكلام يجىء أحياناً حتى ما يقدر الأديب على ردّه ، ويعزب حيناً حتى لا يلقاه ، وأنه يعلو ويصفو وينزل ويتعكر ، وما عجزت الليلة عيًّا ولا فهاهة ، فأنا أكتب فى الصحف من عشرين سنة ، ولكن الكتابة بالأجرة

(١) نط فى الأرض : ذهب .

أو يزيل سبباً قوياً منها إن لم يُزل جميع الأسباب .

فان الحروب التى وقعت بين أبناء اللغة الواحدة لا تقل عن الحروب التى وقعت بين أبناء اللغات المختلفة ، وأمثلة ذلك ظاهرة فى تواريخ الرومان واليونان والعرب والصقالبة والجرمان والانجليز ، وأبناء الهند والصين .

ونحن إذا رجعنا إلى الحروب بين أبناء اللغات المتعددة لم نستطع أن نردها جميعاً إلى انقطاع التفاهم بين أمة منها وأمة ، أو بين زعماء الأمة الذين يقودونها إلى الحرب وزعماء الأمم التى يحاربونها . فربما فهم كل فريق منهم ما يريده الآخر ووقعت الحرب بينهم لأنهم « يفهمون » لا لأنهم لا يفهمون .

فإذا خطر لنا أن تعميم « الاسبرانتو » يعمم الوفاق ويقضى على أسباب الشقاق فليس فى حوادث الماضى ولا فى حوادث الحاضر ما يعزز هذا الخاطر بدليل .

وغاية ما يرجى من تعميم لغة إضافية بين أبناء النوع الانسانى أن تتيسر بينهم المعاملات ويستفيد العارفون بتلك اللغة من سهولة قواعدها فينقلون تلك القواعد شيئاً فشيئاً إلى لغاتهم القومية التى تحتاج إلى تعديل .

أما امتناع الحروب فليس سبيله توحيد الكلام ، بل توحيد البواعث التى يعبر عنها الكلام ، وتوحيد هذه البواعث مستطاع فى ناحية واحدة على وجه التقريب لا على وجه الشمول والاطلاق ، وهذه الناحية هى ناحية المثل العليا للأخلاق والقيم والأقدار .

فإذا أعجب الناس بفضيلة واحدة واشمأزوا من رذيلة واحدة وتكلموا بألف لغة فذلك أدعى إلى التقارب بينهم من لغة واحدة يتكلمونها وليس بينهم وفاق فى مواطن الاستحسان والاستنكار ، وليس لهم مقياس واحد يقيسون به أعمال الدول والرجال .

وآية ذلك أن اتجاه الناس إلى وحدة المقاييس الخلقية يطرد فى مراحل التقدم والحضارة ، ولم يكن تفرقهم فى مذاهب اللغة والرأى مناقضاً لاتجاه التقدم والحضارة فى عصر من العصور .

عباس محمود العقاد

بيع وشراء ، ولكل مبيع ثمن ، وأنا أحب أن أنتصف وأنصف الناس من نفسي ، لذلك رأيتني كلما سقطت على موضوع وزنته فوجدته لا يساوى الثمن الذى تدفعه لى المحطة ، فتركته وفتشت عن أغلى ، وكلما خطرت لى فكرة طمحت إلى أعلى ، حتى كاد يمضى الوقت ولم أصنع شيئاً ، ونزل بى ما نزل بالأستاذ توفيق الحكيم لما كلفوه أن يضع حواراً للفلم وجعلوا له جعلا ضخماً ، فحصر فيه فكره ، وحشد له قواه ، وفرّ لأجله من داره . ثم انتهى به الأمر أن ألّف كتاب (الحمار) ولم يضع الحوار .

عند ذلك أيست ولبست ثيابى ، وهربت إلى الأسواق .

* * *

جلت فى الأسواق ، وأسواق دمشق ليلة العيد كأنها المحشر ، قد أوقدت فيها المصابيح ، وفتحت المخازن ، وانتشر الباعة ، وتدفق عليها أهل البلد والفلاحون ، بالأزياء المختلفة واللغات المتباينات ، وكل بائع ينادى برفيع صوته ، وكل مشتر يصيح ، وكل مجتاز يتكلم ، والبضائع معروضات من كل ما كول وملبوس ومفروش ومنظور ومشموم ، وكلٌ يريد أن يعدّ الليلة عدته للعيد فيشترى فيها طعامه ولباسه ...

وكنت أسير فى هذا الزحام شارد الذهن ، نازح الفكر ، أعمل عقلى فى هذه القصة ... التى وعدت بها المحطة ، فأعلنت عنها وبشرت بها ، ثم لم أستطع أن أكتبها ، حتى وصلت إلى (باب المصلى[1]) ؛ فإذا أنا بحشد عظيم من الناس قد احتشد حيال دكان ، فدفعنى الفضول إلى معرفة الخبر ، فأقبلت أدفع الناس بكتفى ، وأشق طريق بيدىّ كلتيهما وأطأ أعقاب الناس وأقدامهم ، وأصغى إلى هذا الفيض العجيب من ... النثر الفنى ... الذى جادت به قرائحهم ، فتدفق علىّ من ألسنتهم ، حتى بلغت المشهد ، ونظرت ...

* * *

نظرت ، فرأيت اثنين يختصمان ويعتركان ، أما أحدهما فكان مسكيناً قميئاً أعزل عاجزاً ، وأما الآخر فكان ضخماً طوالا كالح الوجه ، مفتول العضل ، وسخ الثوب ، قد حمل سكيناً فى يده طويلة النصل ، حديدة الشفرة ، وهجم بها على صاحبه والناس ينظرون ولا ينكرون ، وصاحبه المسكين يصرخ ويتلفت تلفت المذعور ، يطلب الغوث فلا يغيثه أحد ، ويبتغى المهرب فيسد عليه الناس طريق الهرب ...

وإنى لأنكر ماذا أصنع ... وإذا بالخبيث العاتى يذبحه والله أمامنا ذبحاً ، ويتركه يتخبط بدمه ، ويوليه ظهره ويمضى إلى دكانه متمهلا ، فيعالج فيها شأنه على عادته ، كأنه لم يرتكب جرما ، ولم يأت الأمر النكر جهاراً !

وكدت أهجم عليه ، وأسلمه إلى الشُّرَط . ثم ذكرت أن الشجاعة فى مثل هذا الوطن تهور وحماقة ، وأن المجرم بيده السكين لا يمنعه شيء أن يَجَأ بها من يريده بشرّ ، وطمعت أن يتحرك أحد الواقفين فيقدم عليه فأتبعه وأشد أزره ، فلا والله ما تحرك أحد منهم ، ولا جَرُؤ على ذلك ؛ بل لقد تكلم واحد منهم ، فلما رفع القاتل رأسه ونظر إليه رأيته يجزع منه ويفزع ، ويقول له بصوت مضطرب متلجلج : « الله يسلّم يديك » !

وحرت ماذا أعمل : أأبلغ الشرطة ، أو أدعهم وأمضى إلى دارى لا علىّ ولا لى ؟ ثم رأيت أن خير ما أفعل أن أكتب وصف ما رأيت ، وأبعث به ليذاع ويعرفه الناس .

* * *

وهأنذا أتهم هذا الرجل بالقتل ، وأدعو الحكومة إلى القبض عليه حتى يعاقب ويكون عبرة لمن يعتبر . ولا يحسبن أحد أنه فرّ ، أو أن القصة متخيلة أو مكذوبة ، أو أنها من أساطير الأولين ، أو من أخبار العصور الخوالى ، فالقاتل موجود فى دكانه ، يغدو إليها ويروح إلى بيته ، والقصة صحيحة رأيتها بعينى رأسى وأنا سالم العقل غير مجنون ولا معتوه ، متيقظ غير نائم ولاحالم ، صاحٍ غير مخدّر ولاسكران ، ثم أنى رأيتها الليلة البارحة !

* * *

هذه هى الحادثة الفظيعة التى كتب الله أن تكون هى موضوع قصتى التى فكرت فيها وأطلت التفكير فكيف رآها الناس فلم يحفلوا بها ولم يأبهوا لها ؟ أفسدت الأخلاق ، وضاعت

(١) هى فى أول (ميدان) الحصى فى دمشق ، كان فيه مصلى العيد، لما كان الناس يعرفون السنة فيصلون العيدين فيه لا فى المساجد .